



تمدد الفكر الحداثي في العقل العربي، رأي طه حسين في الفلسفة اليونانية نموذجًا The Expansion of Modernist Thought in the Arab Mind – Taha Hussein's View on Greek Philosophy as a Model

الأستاذ الدكتور نبيل فولي محمد

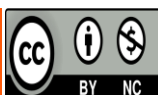
جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية، تركيا

Prof. Dr. Nabil Fouly Muhammad

Fatih Sultan Mehmet University Turkey

Abstract:

Western modern thought established itself globally alongside colonial expansion and geographical discoveries. This resulted in a profound cultural shock for Eastern societies, particularly the Islamic world, which had long maintained a strong sense of identity and engaged in centuries of cultural and intellectual competition with the West. The initial Muslim responses to modernity were often extreme—ranging from total rejection to unquestioning acceptance. A more balanced perspective only developed later, viewing modernity as a human intellectual experience that must be critically evaluated, selectively accepted or rejected. This paper presents Taha Hussein as a case study of one such Muslim response to modernity. Among the earliest Arab thinkers to embrace and advocate modern Western thought, Hussein strongly supported its introduction into the Arab intellectual world. The paper specifically examines his glorification of Greek philosophy, which he saw as the historical foundation of modern thought. He idealized its rationalism and considered it a guiding framework for the modern Arab world. It further explores how colonial influence and Western cultural dominance reshaped Arab intellectual discourse, and how Hussein's fascination with Greek



Al-Turath Al-Adabi, Department of Arabic, NUML, Islamabad,
This work is licensed under a [Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License \(CC BY-NC 4.0\)](https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/).

philosophy, especially in his early works, reflected this transformation. The paper also investigates the psychological and cultural complexity of Hussein's identity—shaped by both his traditional education at Al-Azhar and his Western academic training—which contributed to an evident intellectual duality in his writings. The study concludes that many of Hussein's claims—especially his assertions about the Greek roots of Arab intellectual identity—were exaggerated and require critical reassessment. Through analyzing key works such as *Leaders of Thought*, *Critique and Reform*, and *From Afar*, the paper offers fresh insight into his philosophical orientation, especially in light of themes like cultural borrowing, epistemological sovereignty, and the tension between tradition and modernity.

Keywords:

Taha Hussein, Greek philosophy, modernist thought, Arab intellectual history, rationalism, cultural identity, tradition vs. modernity.

ملخص البحث

فرضت الحداثة الغربية نفسها على العالم مع صعود الاستعمار والكشوف الجغرافية، وواجهت المجتمعات الشرقية - وعلى رأسها العالم الإسلامي - صدمة حضارية عميقة، مردّها إلى شعور قوي بالهوية وتاريخ طويل من التنافس مع الغرب. وقد سيطرت ردود فعل متطرفة تجاه هذه الحداثة، بين رفض مطلق لها وذوبان كلي فيها، في حين تأخّر ظهور موقف معتدل يراها تجربة إنسانية قابلة للتقويم والنقد والانتفاع والرد.

يركّز البحث في نموذج التطبيق على شخصية طه حسين، بوصفه أحد أبرز من مثّلوا الانحياز المبكر للخيار الحدائفي في الفكر العربي الحديث. وتحديداً، يدرس أحد تجليات هذا الانحياز، وهو تمجيد حسين للفلسفة اليونانية بوصفها الأصل التاريخي للحداثة الغربية، ونموذجاً - حسب رأيه - للعقلانية الصارمة التي يمكن أن يسترشد بها العالم العربي.

تحلل الدراسة كيف أعادت الإيديولوجيا الحدائية، تحت تأثير الاستعمار والثقافة الغربية، تشكيل الخطاب العربي، وكيف عبّر طه حسين عن افتتان عميق بالعقل اليوناني، وخاصة في أعماله المبكرة. ومع ذلك، تبرز الدراسة تعقّد هويته الثقافية، نتيجة تكوينه الأزهري وتعليمه الغربي، وما نجم عن ذلك من ازدواجية فكرية في كتاباته.

وتنتهي الدراسة إلى أن حسين وقع في مبالغات تحتاج إلى مراجعة نقدية، خاصة ما يتعلق بتأثير الفلسفة اليونانية على الهوية الفكرية العربية. ومن خلال تحليل أعماله مثل "زعماء الفكر"، و"نقد وإصلاح"، و"من بعيد"، تقدّم الدراسة قراءة جديدة لخياراته الفلسفية في ضوء قضايا مثل الاقتباس الثقافي، والسيادة الفكرية، والتوازن بين الحداثة والتراث.

الكلمات المفتاحية:

طه حسين، الفلسفة اليونانية، الفكر الحداثي، التاريخ الفكري العربي، العقلانية، الهوية الثقافية، التراث مقابل الحداثة.

تمدد الفكر الحداثي في العقل العربي، رأي طه حسين في الفلسفة اليونانية نموذجاً

فرضت الحداثة الغربية نفسها على العالم مع مطالع الحركة الاستعمارية والكشوف الجغرافية الحديثة، وقد اضطرت أكثر المجتمعات الشرقية في استقبال هذه الحداثة وكأنها فوجئت بها. لكن يبدو أن العالم الإسلامي كان الأكثر اضطراباً في هذا الاستقبال، مما قد يرجع سببه إلى طول التنافس بينه وبين صناعات الحداثة، وكذلك شعور المسلمين القويّ بهويتهم الخاصة التي وضعتها المنظومة الجديدة في مهبط اختبار صعب.

ولعل أوضح تحليلات اضطراب العالم الإسلامي في استقبال الحداثة تمثل في توارّي الموقف المعتدل منها زمنًا طويلاً، وسيادة المواقف المتطرفة منها؛ سواء الرفضية لها تماماً، أو المتماهية معها كلياً، حتى احتجنا وقتاً طويلاً لنصل إلى وجودٍ معتبر للموقف المعتدل الذي لا يرى الحداثة إلا تجربة إنسانية لها أصولها ونتائجها مما يتفق مع ثقافتنا ويتعارض، فليست خيراً مطلقاً ولا شراً خالصاً كما هو شأن التجارب الإنسانية عموماً.

ولا يخفى أن العالم لم يكن مخيراً بين أن يقبل الحداثة الغربية أو يرفضها؛ لأنها جاءت وفي يدها القوة السياسية والعسكرية والقدرة على تسويق ما لديها. غير أن الاختيار الواعي بإزاء هذا الزحف كان جديراً بأن يجنب المجتمعات المستقبلية كثيراً من الصراعات والسلبيات الوافدة

من خلف الحدود، وقد تنجح في طريقها هذا في تحويل التلاقي مع الحادثة إلى فرصةٍ تجدد فيها مساراتها في الحياة.

وفي هذا السياق ظهرت شخصيات كثيرة في ثقافتنا العربية والإسلامية خلال القرن العشرين اتخذت من الحادثة مواقف متطرفة - قبولاً ورفضاً - ومنهم: الأديب والمفكر المصري الشهير طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) الذي كان جهده الفكري مساعداً كبيراً على الاندفاع باتجاه الخيار الحدائني كما صاغه أهله؛ خاصة خلال مرحلتيه الفكرية المبكرة والمتوسطة. وتسعى هذه الدراسة إلى البحث في أحد تجليات انحياز طه حسين الصريح للخيار الحدائني على هذه الشاكلة، وهذا التجلي هو: تمجيد الأصول التاريخية للحادثة متمثلاً في الفلسفة اليونانية.

الحادثة وتراث اليونان:

وترجع علاقة الحادثة الغربية بالفكر اليوناني إلى أنها حين حدثت في مطالع العصر الحديث من سلطة الكنيسة في الحياة الغربية إلى أقصى درجة، فقد احتاجت إلى إقامة أصول ومرجعية بديلة، فكان التراث اليوناني أحد أهم هذه الأصول الأولية والمؤقتة؛ خاصة من خلال اهتمام الفلاسفة الطبيعيين بالمادة الكونية، والتمجيد السقراطي والأفلاطوني والأرسطي للعقل، فصار العقل والبحث التجريبي لديهم قاعدة للاعتماد والقبول أو الرفض والرد.

يضاف إلى هذا ما أشار إليه الأستاذ عباس محمود العقاد (ت ١٩٦٤م) - ند طه حسين الشهير - من أن التمجيد الغربي للفلسفة اليونانية والمبالغة في الثناء على عبقرية أهلها، قد وقفت وراءه دوافع استعمارية، أهمها تدعيم مزاعم السيادة والسيطرة الغربية على الشرق في عصر الاستعمار^(١). والاستعمار لم يكن فقط المسوّق الأكبر للحادثة الغربية، بل كان قبل ذلك ترجمة لمبادئها في أحقية الأقوى والأصلح بالسيطرة على الآخر واستغلاله، وهذا يبين الموقع الخطير للفلسفة اليونانية في سياق الحادثة.

تلاقي الحداثة والتراث:

بسبب طبيعة الدراسات والقراءات التي نالها أو اعتنى بها طه حسين، جاءت ثقافته مزيجًا متصارعًا من الجديد والقديم، وما هو شرقي وما هو غربي، وغلبت عليه حرفة الأدب وعاطفيته الجاحمة، حتى امتاز أسلوبه في كثير من القضايا التي عرض لها بالدراسة بالعمومية في الحكم، والقطعية في العبارة، وعدم الاحتياط في استخلاص النتائج النهائية. ونتيجة لهذه الطبيعة الفكرية والنفسية المركبة والعاطفية لـ "العميد"، فقد كانت مواقفه سجلًا بين تشكيلاته الثقافية المتنوعة؛ وذلك حسب القضية المطروحة، والأجواء التي تُطرح فيها، والمرحلة السَّنيّة التي عالجها فيها، وأحيانًا بسبب حدة الخصوم المختلفين معه أو سماحتهم.

وقد باح بنفسه بأمر يتعلق بمحافظته على جانب الأصالة الفكرية إلى جانب الحداثة الزاحفة عليه بقوة حين ذكر شيوخته في الأزهر والجامعة المصرية الذين تعلم على أيديهم علوم الإسلام والعربية (كالشيخ عبد الله دراز، والشيخ سيد المرصفي، والشيخ محمد نجيت، والأستاذ حفني ناصف، والشيخ محمد الخضري)، وأنه لولاهم لاجتاحت الثقافة الغربية اجتياحًا لا أوبة له بعدها، وقال بنفسه عن بعض هؤلاء الأساتذة: إنهم "أتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكثير الذي كان يأتي به المستشرقون، وكان جديرًا بأن يحوّل هذا الفتى تحويلًا خطيرًا يُفنيه في العلم الأوروبي إفاء" (٢).

ومع هذا بقي الازدواج الثقافي جزءًا أساسيًا من شخصية طه حسين الذي كان ينفر من التقليدية عموماً، ويأخذ على الشرق تقليديته في الوسائل وطرق الفهم، كما كان منبهراً بالمنتج الحدائثي الغربي إلى حد بعيد، ونتج عن هذا صراع مستمر في عقل الأديب والأكاديمي "الأزهري السوربوني" بين فكرتين تتفقان وتختلفان، فماذا يمكن أن يكون موقفه من الفلسفة والفكر اليوناني باعتباره منتجًا غربيًا وعريقًا في الوقت نفسه؟

يقين أم شك؟

عُرف عن طه حسين أنه أشاع منهج الشك في الوسط الثقافي والأكاديمي العربي من خلال موقعه في الجامعة وكتابات كثيرة في الصحف السيارة، وعنى به عدم الاعتراف بما يشيع بين الناس من مسلمّات إلا بعد اختبار طويل لها، وربما تسقط المسلمّة تحت معاول النقد في نظره، ويظهر هذا جليًا في موقفه الشاكّ من الأدب العربي الجاهلي؛ فهل تجلّى هذا في موقفه من الفلاسفة اليونانيين كذلك، أو اعتبر وجودهم التاريخي ومطلعية فكرهم مسلمّة مؤكدة لا يتطرق إليها الشك؟

تعامل طه حسين مع الفلسفة اليونانية وشخصياتها باعتبار أن وجودهم من اليقينيّات الثابتة التي لا يدخلها الشك، فقد سجل مناظرة كان منبهراً بها دارت في أحد المؤتمرات الجامعة بين باحث فرنسي (لفيفر) وآخر بلجيكي (دوبريل) حول صحة وجود سقراط وجوداً حقيقياً، حيث ذهب الباحث الأخير إلى أن سقراط مجرد خرافة، وأنه لا وجود حقيقياً له! واعتمد في إثبات ذلك على أن ما تُنسب إلى سقراط من آراء كان معروفاً قبله، وأن سقراط ليست له صورة ولا شخصية واحدة، فقد بدا أحياناً نموذجاً للبحث الفني في كتابات الأدباء، ثم تطور إلى شخصية جادة فكّية، ثم أصبح أباً للفلسفة ورمزاً لها، مما يعني - في رأي دوبريل - أنه شخصية مصنوعة.^(٣)

ناقش طه حسين هذا الرأي بإنكار ودهشة كبيرة مستعيناً - فيما يبدو من عباراته - بملاحظات الباحث الفرنسي لفيفر في دحضه، ورأى أن وجود الفيلسوف اليوناني بالتفاصيل المسرودة في الكتب عن حياته وشخصيته هي محل إجماع، وأن دوبريل عاجز القضية علاجاً فلسفياً، وكان جديراً به أن يعالجها علاجاً تاريخياً، وأن رأيه الذي ذهب إليه هو خرق للإجماع المحقّق حول وجود سقراط.^(٤)

ولا شك أن التوسع في الشك بهذه الصورة ينافي المنهج العلمي الدقيق بحق، إلا أن اليقين الذي يحمله رأي طه حسين في المقابل ينافي هو الآخر روح هذا المنهج؛ لأن وجود

شخصية سقراط إنما نستدل عليه بمجموعة من القرائن تصل بالكاد إلى درجة الرجحان، وأما القطع والقول بالإجماع الذي لا يخرمه إلا شذوذ دوبريل فهو من المجازفات غير الدقيقة. ولعل الرد السابق لطفه حسين على دوبريل يحتاج إلى تعليق؛ وذلك أنه رأى أن الباحث البلجيكي عالج قضية الوجود التاريخي لسقراط علاجاً فلسفياً وليس تاريخياً، وهذا ليس دقيقاً؛ لأن الاعتماد على وجود أفكار سقراط قبل زمانه، وتعدد الصور التاريخية التي رُسمت له في إثبات عدم وجوده - مع عدم التسليم بهذه النتيجة - هو بحث تاريخي تماماً لا فلسفي. وهذا ما تمسك به تيار الشك الغربي الحديث في وجود الشخصيات التاريخية المشهورة من الأنبياء والفلاسفة وغيرهم، فقد كانوا يبحثون عنهم في مصادر زمانهم، وفي ما خلفوه وراءهم من آثار،

قادة الفكر الدائمون:

في كتابه "قادة الفكر" الذي نشره سنة ١٩٢٦ بعد أن طالعه القراء منجماً على صفحات مجلة "الهلل"، حاول طه حسين تحديد الشخصيات ذات التأثير الأكبر في صناعة الفكر الإنساني في عوالم الأدب والفلسفة والسياسة منذ أقدم العصور، فمنح اليونان النصيب الأكبر في هذا الأمر، فترجم في كتابه لليونانيين هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو، إضافة إلى الإسكندر المقدوني، ويوليوس قيصر الروماني.

وركز طه حسين على أنه لا يريد بهذه الفصول الترجمة لحياة أشخاص، ولكن - كما يعبر - "لتاريخ العقل الإنساني، وما اعترضه من ضروب التطور وألوان الاستحالة والرقى، حتى انتهى إلى حيث هو الآن".^(٥)

وحين ننظر إلى هذه الخطة التأليفية وإلى الأسماء التي تناول طه حسين دورها في صناعة الفكر الإنساني في "قادة الفكر" كما سبق ذكرها، سنجد أنها ليست في رأيه مجرد انطلاقة زمنية مبكرة للفكر، ولا فسيلة صغيرة غرسها القدماء ثم رُبّت خلال القرون على يد خلفائهم المتتابعين من مختلف الأمم، ولكنها تحديد لانتجاهات الفكر فيما تلا في العالم كله، ولتأثير

زمني طويل المدى في التفكير الإنساني لا يستثني العصر الحاضر نفسه، فهو يقول عن الفلسفة اليونانية: إنها "لا تزال تدبر حياة العقل الإنساني إلى الآن".^(٦)

وفي كتابه "من بعيد" الذي نشره في صورة مقالات بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٣٠، ثم في صورة كتاب سنة ١٩٣٥، تحدث طه حسين عن مناقشة دارت في مؤتمر حضره في بلجيكا سنة ١٩٢٣ حول ورقة عرضها لويس ماسينيون ناقش فيها أصالة التصوف الإسلامي، وذهب إلى أنه "عربي خالص، أو يوشك أن يكون عربيًا خالصًا"، وأما ما يوافق فيه هذا التصوف أمثاله لدى الأمم الأخرى، فليس إلا من قبيل الصدف وتوارد الخواطر ووحدة نظام التفكير بين البشر.^(٧)

وقد ناقش ماسينيون في رأيه هذا جماعة من الحاضرين، منهم طه حسين نفسه الذي رأى أن التشابه في هذا الصدد لا يفسّر هذا التفسير الذي أورده ماسينيون فقط، بل قد يكون من تأثير الأمم بعضها في بعض.^(٨)

ولا نريد أن نقف طويلا أمام هذه المفارقة العجيبة التي يبدو فيها المستشرق أكثر دقة في فهم تاريخ العلم وتطوره عند المسلمين – تطبيقا على التصوف تحديداً – ولكن أشير فقط إلى أن ماسينيون شفع رأيه ذلك بدراسته الشهيرة للمصطلح الإسلامي الصوفي، وأكد أنه من خلال هذا المصطلح يتضح أن التصوف نشأ عند المسلمين نشأة ذاتية خالصة، وأن تأثيره بالرؤى الصوفية المسيحية والهندية وغيرهما جاءت في مراحل تاريخية تالية.

ولا ينفي هذا دقة ما ذكره طه حسين في نصه الأخير حول إثبات التأثير ونفيه، إلا أن هذا لا ينسحب على نشأة العلوم اللغوية والشرعية الإسلامية أو مراحلها التاريخية الأولى، كما أنه لا يعطي العقل الفلسفي المتأثر بالنزعات اليونانية منزلة القيادة لحمل الثقافة والتاريخ والحضارة الإسلامية – كما ذهب "العميد".

ونجد كذلك بيانا لرأي طه حسين في الفلسفة اليونانية وتأثيرها في العالم الإسلامي في كتابه "نقد وإصلاح" الذي نشره في صورة كتاب سنة ١٩٥٦؛ أي بعد عشرين عاما من

كتابه "قادة الفكر"، وفيه رأى أن فلسفة الإغريق قد غيرت "بترجمتها طبيعة الحياة العربية، وأقاموا بفضلها هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التي كان لها أثرها الخطير في إحياء أوروبا في القرون الوسطى"^(٩)، ويبدو بهذا أن رأي الرجل في مكانة الفلسفة الإغريقية ومركزيتها المطلقة لم يتغير في عمومها خلال هذه العقود الثلاثة.

أرسطو.. المعلم الأكبر:

وإذا كان طه حسين يذهب هذا المذهب في تقدير الدور الثقافي لليونان عموماً، فإنه قد عبر عن تقديره الخاص لأرسطوطاليس؛ تلك الشخصية الفلسفية المهمة التي استنقست "في المنطق - كما يقول - قوانين العقل الإنساني في البحث والتفكير على اختلاف درجتهما وأطوارهما"^(١٠)، وزاد أن المحدثين قد يقدّمون بعض قوانين الفكر أو يؤخرون، إلا أن القياس - الذي قال به أرسطو وعده أساس التفكير - تبقى له مكانته، فإن كانت الفلسفة الحديثة قد قدمت الاستقراء وغُيّيت به، فإنها لم تلغ القياس، وليس بإمكانها أن تلغيه؛ "لأنه - كما يعبر طه حسين - صورة طبيعية من صور التفكير الإنساني".^(١١)

ولا ينبغي أن نعتبر الأديب والناقد طه حسين في رأيه هذا - بقطع النظر عن دقته أو عدم دقته - دخيلاً على المنطق الأرسطي، فالرجل قد درسه منذ وقت مبكر أثناء انتظامه طالباً في الأزهر مرة بعد مرة، فقد درس منظومة "السلم المروّق" للأخضري، وشرح الجرجاني على إيساغوجي، والتصورات من شرح الخبيصي على "تهذيب المنطق"، و"سلم العلوم" للبهاري^(١٢)، ووصف نفسه بأنه "أحبّ المنطق حبّاً شديداً حين كان يسمع شرح السيد على إيساغوجي من أستاذه"^(١٣)، حتى "تربّت في نفسه تلك الملكة كما كان الأزهريون يقولون".^(١٤)

فالمسار التعليمي للرجل لا يسمح لنا بأن نقول إنه حشر نفسه هنا فيما لا يعرف، أو إنه غريب على هذا الفن الفلسفي، إلا أنه ربما فاتته في هذا الرأي الذي ذكره كثيراً مما وجهه الغربيون أنفسهم - بله المسلمين - منذ روجر بيكون (ت ١٢٩٤م) إلى منطق أرسطو من

نقد بلغ حدا كبيرا من التخطئة للنهج العقلي الذي خطه أرسطو للتفكير الإنساني، فقد شاعت في الأدبيات الغربية الناقدة لأرسطو اتهام منطقته بالعقم، وعدم الجدوى في خدمة العلم وتقدمه، كما خطا المنطق الرمزي خطوات واسعة تكشف عن طرق كثيرة للتفكير لم يعرفها أرسطو إطلاقاً، وسبق التجريبيون هؤلاء الرمزيين في التأكيد على منهج أو مناهج أخرى مختلفة للبحث في العلوم لم يعرف منها أرسطو إلا قليلاً جداً، وأهم ما فيها هنا هو أنها تصف القياس الأرسطي بأنه قائم على أصل غير ثابت، فهو لا قيمة له ولا لنتائجه ما لم نغمه على استقراء علمي دقيق.

أما حديثه عن ضرورة اللجوء إلى القياس في العلم، وأنه لا يُستغنى عنه فيه، ففرق شاسع بين القياس القائم على أصول واضحة ومعلومات علمية صحيحة خضعت للملاحظة والاختبار الدقيق كما هو شأن المنهج العلمي، وبين قياس وإي يوظفه صاحبه في ما لا يقين في صحته من المعلومات المرسلّة.

مهما يكن، فإن طه حسين إن كان يسجل هذا عن مكانة المنطق الأرسطي خاصة، فإنه ينحو نحواً مشابهاً في تقديره لفلسفة أرسطوطاليس في عمومها، وأنها "سيطرت منذ ظهورها على العقل الإنساني القديم، وأنها هي التي كان لها الأثر الأكبر في تكوين العقل العربي الإسلامي، وفي وجود فلسفة العرب وعلم الكلام عندهم".^(١٥)

والحقيقة أن في هذا الكلام تعميماً غير دقيق، ولا يستند إلى دليل، خاصة ما جاء فيه عن خلق العقل العربي خلقاً جديداً بتأثير أرسطو وأثرابه؛ إذ ليس دقيقاً أن نثبت أي دور للفكر اليوناني في تكوين العقل الإسلامي بدون مراعاة حقيقة أن ترجمة الفكر اليوناني إلى العربية لم تستقر إلا في القرن الثالث، كما أن تأثير هذا الوافد في العالم الإسلامي قد لقي كثيراً من المقاومة الشرسة، وفي النهاية فقد استقلّله بأن صار مبحثاً في بعض العلوم الإسلامية، أو غلّفه العقل المسلم بغلاف خاص يختلف به عن أصله اليوناني، وعن الصورة الشرقية للفكر اليوناني على السواء.

ومع هذا، فلا شك أن الفكر اليوناني كان له تأثيره المتصاعد في الحياة العلمية والفكرية الإسلامية منذ ترجمت الفلسفة، إلا أنه ليس صحيحاً كذلك أن فلسفة أرسطو كان له "التأثير الأكبر" في هذا الجانب، ولا حتى في النشاط الفلسفي للفارابي وابن سينا وابن رشد وأمثالهم، فالذي تُرجم إلى العربية من هذه الفلسفة كان قد تلبس بكثير من فكر أفلاطون والأفلاطونية المحدثة التي هي عبارة عن خليط معقد من فكر اليونان الخالص وفكر الشرق الذي تراكم خلال الدهور، وهذا يعني أن أرسطو لم يُعرف خالصاً في العالم الإسلامي إلا في أحوال قليلة كما استقر عند الدارسين.

إن العقل الإسلامي الذي ظهر خلال القرون قد تفاعل مع جملة العوامل العلمية والفكرية والاجتماعية التي مر بها، وكانت الفلسفة اليونانية واحداً من هذه العوامل الكثيرة التي كان لها تأثيرها المهم في وقت متأخر عن مرحلة نشأة العلوم الإسلامية ونضجها، والتضخيم من هذا التأثير يجافي روح العلم، ويفتقر إلى الأدلة المقنعة.

وقد نلتمس لطفه حسين مسوّغاً لهذا الموقف الذي اتخذته من أرسطو وعموم الفكر اليوناني في سياق آخر، فنجد أنه - على عاداته في الحكم والتقدير - يعد العقلين وحدهم هم "مصدر القوة الصحيحة" للمجتمع، ووظيفتهم هي رسم صورة الحياة لغيرهم، وتصويب ما قد يقع فيه من أخطاء وانحرافات.^(١٦)

واستعمل طه حسين لفظ "العقلين" هنا مقابلاً للفظ "العاملين"، وعنى بالأول أساتذة الجامعة والمدارس الفنية الخاصة والعاملين في معامل التجربة والإحصاء^(١٧)، وعند النظر نجد أن هؤلاء فريقان اثنان: النظريون الذين يقدمون للمجتمع الأفكار والآراء الخالصة حول ما هو قائم وما ينبغي أن يكون في مختلف المجالات التي تقوم عليها حياة الناس، والتجريبيون الذين يقدمون للمصانع قوانين العلم مثبتة وقابلة للترجمة إلى تكنولوجيا تقوم بإنتاجها مكينات المصانع وأيدي العاملين.

ومن هنا ليس غريباً أن ينحو طه حسين في تحديده للقوى الضاربة في المجتمع الإسلامي نحواً يركز فيه على طائفة العقلايين المسلمين المتأثرين بالتراث اليوناني، ويقيس بهم قوة الحياة وضعفها، ولا يتسع نظره ليشمل قطاعات أخرى واسعة من العلماء اشتغلوا بعلوم اللغة والدين والتاريخ، وكأن العقل خاص بالفلاسفة ومن لاصقهم من الأطباء والمهندسين والفلكيين والكيميائيين وحدهم.

إلا أن بروز العقل في ثقافتنا لم يحوله إلى حاكم منفرد إليه يرجع الأمر كله! بل شاركه الفن والأدب والتصوف، وما يتعلق بها من ملكات إنسانية، الحياة في الساحة الإسلامية.

جذورنا اليونانية:

بنى الدكتور طه حسين رأيه في وجوب العودة إلى التاريخ لفهم ثقافة المصريين – أو انتمائهم الثقافي بين الشرق والغرب – على افتراض أن العقل المصري احتفظ طوال القرون بعناصر معينة ثابتة في ثقافته، وقرر لأجل هذا أنه عقل ينتمي إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط^(١٨) اليونانية الرومانية.

والحقيقة أنها رؤية استاتيكية جامدة لا تناسب طبيعة الحياة والفكر التي يشهد التاريخ أنها تمتاز بكثير من الحركة والديناميكية؛ إذ إن الإسلام والمسيحية والحضارات الغربية عموماً هما أكبر صانعين لحضارة المتوسط منذ قرون بعيدة، وقد صاغوا هذه الثقافة صياغات مختلفة تبدو في اختلاف شرق البحر وجنوبه عن شماله، وقد كانت لكل وطن من أوطان هذه البقعة من العالم – خاصة في أدوار قوتها – ذاتيته المؤثرة في غيره والمتأثرة بغيره كذلك، خاصة مصر التي هي الرائد الأقدم للحضارة الإنسانية حسب ما بقي لنا من فصول التاريخ الإنساني. وفي محاولته تسويغ رأيه بلزوم الاهتمام باليونان وفلسفتها القديمة؛ التي هي في رأيه ثقافة البحر المتوسط، وظّف طه حسين كلا من العلاقة الحضارية لمصر بالغرب الحديث، وتأثير الثقافة اليونانية في النهضة الأوروبية الحديثة، وأكد أنه "ليس إلى فهم الحياة الحديثة على اختلاف وجوهها من سبيل إلا إذا فهمت مصادرها الأولى، ومصادرها الأولى هي الحياة

اليونانية من جهة، والرومانية من جهة أخرى؛ أو قل: هي الحياة اليونانية؛ لأن حياة الرومان كانت من أكثر وجوها متأثرة بالحياة اليونانية".^(١٩)

فلأننا قد اتخذنا في وقتنا الحاضر حياة الأوربيين نموذجاً نحتديه، وهذه الحياة يعود أصحابها بجذورها إلى فكر اليونان وحضارتهم، ونحن لا بد أن يكون اختيارنا لهذا النمط من الحياة عن "فهم وبصيرة" وبلا تقليد أعمى - كما يفسر طه حسين -؛ لهذا كله وجب في رأيه أن نفهم الجذور الأولى التي شكلت هذا النموذج الذي وقع اختيارنا عليه، ألا وهي الثقافة اليونانية القديمة، والتي تمثلها الفلسفة ورجالها.

ويبدو لي أن الذي صنع موقف طه حسين من هذه القضية في هذه المرحلة المبكرة من حياته، هو قراءته في بحر المؤلفات الغربية الحديثة عن حضارة اليونان وفلسفة اليونان وإنجازاتهم في الأدب والفن والسياسة والعلم، وقبل ذلك فقد ترك تتلمذه على بعض أعلام المستشرقين في القاهرة وباريس آثاره التي لا تُنكر على فكره وعقله في كثير من القضايا.

شيء من المراجعة:

ولعل الدكتور طه نفسه قد شعر بأن أكثر مواقفه السابقة لم يكن إلا وليد الحماسة للثقافة الأوروبية برمتها في مرحلة كان يغلب علينا فيها النقل عن الغرب، وأنه قد خَلَفَتْها فيما بعد مراحل أخرى مختلفة لزم أن تكون لنا معها سياسة أخرى، فهو يقول في نص مهم جاء في كتاب له نشره سنة ١٩٥٩؛ أي بعد نشره كتابيه "قادة الفكر" و"نقد وإصلاح"؛ يقول: "أصبحنا نطمئنُ فيما بيننا وبين أنفسنا إلى أن الحضارة الأوروبية - وإن كانت ضرورة من ضرورات حياتنا الفردية والاجتماعية -؛ فإن لنا مقومات خاصة ليست حاجتنا إليها بأقل من حاجتنا إلى الحضارة الحديثة".^(٢٠)

واستأنف قائلاً: "أخذنا نشعر منذ عهد غير قصير بأن المشكلة التي تواجهنا، والتي يجب أن نجد لأنفسنا منها مخرجاً... إنما هي الملاءمة بين هذه الحضارة التي نقلت بالفعل إلى مصر واستقرت فيها وبين أشياء أخرى لا بد لنا من أن نحتفظ بها لنكون أمة من حقها

أن تطمح في الاستقلال وتطمح إليه، ولنكون أفرادًا من حقهم أن يؤمنوا بأن لهم وجودًا خليقًا بهذا الاسم وشخصية خليقة أن يعترف بها الناس".^(٢١)

ومن الجلي أن الرجل تجاوز هنا تلك الحماسة الجارفة التي وسمت كتاباته الأولى بكثير من المبالغة، وجعل لمصر - في فترة كان المد القومي هو السائد فيها - شيئًا من الاستقلالية تجاه قادة الحضارة السائدة.

ولا ينفي هذا أن طه حسين بقي معجبًا بالإنجاز الحضاري الأوروبي الحديث والإنجاز اليوناني القديم إلى حد "الفتنة"، إلا أنه بدا جامعا بين الاعتراف بالتداول الحضاري بين الأمم - المسلمين وغيرهم - والإعجاب بالإنجاز الثقافي اليوناني القديم الذي بلغ شأواً عالياً، وإن كان لا يقارن عنده بما أنجزه الغرب الحديث، فهو يقول "أنا مفتون بأتينا وفلسفتها وفلاسفتها وحريتها وزعمائها"^(٢٢)، لكنه يعطف على ذلك بالتأكيد على أن هذا كله ليس بشيء إذا قورن بباريس وفلسفتها وحريتها الآن.

ومن هنا يمكننا - حسب ما صارت إليه رؤيته الجديدة والمختلفة عن مرحلة "مستقبل الثقافة في مصر" - يمكننا فرز العناصر الإيجابية للحضارة الغربية من عناصرها السلبية، والاقتراب الحضاري من الآخر بدون حاجة إلى أن نغفل جعبتنا من أخطائه؛ ذلك لأننا "إذا دعونا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة كاملة - كما يقول -، فنحن لا ندعو إلى الأخذ بما فيها من النقائص والآثام، ولم نسمع قط أن الفن الجميل نقص أو إثم".^(٢٣)

والأخذ عن حضارة اليونان أو أي حضارة أخرى شيء مسوّغ تماماً، وإذا كنا قد اقترضنا من الآخرين فنحن كذلك أقرضنا الآخرين، فمن المستحيل - كما يقول - "أن يزعم زاعم أننا مقلدون ليس غير، فشخصية العرب ظهرت قوية في الشعر والنثر والعلم، لا يقال عنا إننا مقلدون أخذنا عن غيرنا، ولكننا لم نكد نأخذ عن غيرنا حتى أسغنا ما أخذناه أولاً، وهضمناه، ثم محونا".^(٢٤)

ويكفي في نظره "أن نلاحظ أن النهضة الأولى التي ظهرت في القرن الثاني عشر في أوروبا إنما هي نتيجة لاتصال أوروبا بالعرب، فأدبنا هو الذي أحيا العقل الأوروبي، حتى جاءت النهضة الثانية التي اتصل فيها الأدب الأوروبي بالأدب اليوناني القديم".^(٢٥) و"اتصل الفرنسيون بالعرب في الشرق والأندلس، ووصلت إليهم الفلسفة الإسلامية، فأنشأ وصولها إليهم حركة فكرية جعلت لهم فلسفة يدرسونها ويدافعون عنها".^(٢٦)

وليس من العسير أن تكتشف أن مزاج طه حسين الحاد، مما أشرنا إليه سابقاً، كان له دوره الحاسم في كثير من الآراء التي قال بها سلباً وإيجاباً، في الفلسفة اليونانية وغيرها، فهو حين يحب، وكذلك حين يكره ينساق بعقله تجاه الرأي الذي اجتذبه، وينأى عن الآخر الذي لم تهو نفسه.

وقد يكون هذا طبيعياً في الإنسان على العموم، فالقرارات التي يتخذها الشخص في حياته، والتي من المفروض أن يكون العقل هو صاحب الكلمة الفاصلة فيها؛ هذه القرارات تتأثر بقوة بالعواطف والحسابات النفسية المشابهة؛ لذا فإن طه حسين حين راح يتلمس التأثير الإسلامي في الغرب وجد أنه تحقق من خلال الأدب العربي قبل سواه، فيقول مثلاً: "إذا استطاعت أوروبا أن تفخر الآن بعلمائها المستشرقين، فأنا واثق بأنها مدينة بهذا للأدب العربي، فلولا سيبويه والجاحظ والمعري وغيرهم لما وجد عند الفرنسيين رينان ولا كازانوف ولا ماسينيون ولا غيرهم، ولا وجد عند الإنجليز أعلام البحث في الأدب العربي، ولولا هذا الأدب لما وُجد عند الألمان هؤلاء الأعلام".^(٢٧)

ويمكنك أن تلاحظ أن طه حسين يتأني ويدقق في دراسة تأثير العامل الأجنبي في الأدب العربي أكثر مما يفعل في إثبات التأثير الفكري للفلسفة اليونانية، وبيالغ - من ناحية أخرى - في تحديد تأثير الأدب العربي في النهضة الأوروبية الحديثة كما سبق، فهو يقول مثلاً في جانب التأثير اليوناني والفارسي في الأدب العربي: "الذين يزعمون أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان مسرفون، وليس معنى هذا أن النثر نشأ بعيداً عن هؤلاء، بل كان

عربي النشأة، ولكنه تأثر بمؤلاء، وتطور بفضل اتصال العرب بتلك الأمم".^(٢٨) ولاحظ في هذا الصدد الأثر اليوناني في كل من عبد الحميد الكاتب وابن المقفع^(٢٩)، وقدامة بن جعفر^(٣٠)، وابن الرومي^(٣١).

وهذا هو الرأي الذي يشهد له تاريخ العلم في أكثر الفنون والعلوم الإسلامية، أو التي مارسها المسلمون؛ إذ نشأت نشوءًا إسلاميًا خالصًا، وتطور بعضها تطورًا ذاتيًا أبلغها درجة الكمال أو قريبًا منها، ثم دخلت عليها عوامل تطوير مختلفة، كان العامل الأجنبي واحدًا منها، وتفاوت تأثير هذا العامل من علم إلى آخر، حسب قرب العلوم الوافدة من كل علم منها، وحسب اهتمام أصحاب كل علم بالعلوم الأجنبية وإهمالهم له. قل ذلك في الفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والتفسير والتصوف وعلوم اللغة وغيرها.^(٣٢)

الحواشي والمراجع

- (١) إبليس، عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج/ ١٢، ص/ ٢٦٧، وقارن له: أثر العرب في الحضارة الأوربية، عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، ج/ ١٠، ص/ ٧٠.
- (٢) الأيام، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ج/ ٣، ص/ ٢٤٧.
- (٣) من بعيد، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ص/ ٥٠ - ٥١.
- (٤) السابق، ص/ ٥٢.
- (٥) قادة الفكر، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ص/ ٨.
- (٦) السابق، ص/ ٢٠.
- (٧) من بعيد، ص/ ٦٣. أشار الدكتور إبراهيم مذكور إلى أن محاضرات ماسينيون في الاصطلاحات الفلسفية العربية التي ألقاها في الجامعة المصرية سنة ١٩١٢ ألقاها على طلاب أمثال طه حسين ومنصور فهمي وأحمد ضيف وغيرهم: انظر تصدير د. مذكور لكتاب لويس ماسينيون: محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، تحقيق: د. زينب الخضير، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٣، ص/ ك. إلا أن طه حسين وهو يعرض لمناقشة ماسينيون السابقة لنشأة التصوف في المؤتمر المشار إليه لم يذكر أنه استمع إليه يلقي دروسا في

المصطلح الإسلامي الصوفي والمنطقي والفيزيقي والميتافيزيقي وغيرها، مع أن المناسبة كانت تستدعيه لو كان قد حدث.

(٨) من بعيد، ص/ ٦٤.

(٩) نقد وإصلاح، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢، ص/ ١٢٣، وقارن: من حديث الشعر والنثر، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ص/ ٣٠.

(١٠) قادة الفكر، ص/ ٦١.

(١١) السابق، ص/ ٦٢.

(١٢) راجع على الترتيب: طه حسين: الأيام ٢/ ١٧٥، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٦ إلا أنه كتب الأخير هكذا: "سلم العيون" وليس "سلم العلوم"، وهو خطأ سماعي - فيما يبدو - يرجع إلى الناسخ الذي أملى عليه طه حسين هذا النص، وهو من طريف التصحيف، ويسميه المحذثون "تصحيف السماع".

(١٣) الأيام، ج/ ٢، ص/ ١٨٨.

(١٤) السابق، ج/ ٣، ص/ ٢١٨.

(١٥) قادة الفكر، ص/ ٦٣، وانظر: نظام الأثنيين، أرسطوطاليس، (مقدمة الترجمة)، ترجمة: طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤، ص/ ١٠.

(١٦) من لغو الصيف، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ص/ ٣٩.

(١٧) السابق، ص/ ٤٠.

(١٨) مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤، ص/ ١٨.

(١٩) قادة الفكر، ص/ ٢٢.

(٢٠) من لغو الصيف، ص/ ٩٩. وانظر رأيه كذلك في "أن الأدب الحي لا ينبغي أن يتهالك على الآداب الأجنبية" لحظات، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ص/ ٨.

(٢١) من لغو الصيف، ص/ ٩٩. ويقول: "وإنما يتم تمصير العلم إذا أتقناه وتمثلناه وشاركنا فيه كما يشارك فيه أصحابه الأوروبيون. فأما إذا وقفنا عند الترجمة أو تجاوزنا الترجمة إلى تأليف هو إلى التقليد والمحاكاة أقرب منه إلى الابتكار والإبداع فنحن لا نمصّر العلم، وإنما ننقله إلى بلادنا نقلاً ونُقرّه فيها كما يستقر الضيف" من لغو الصيف، ص/ ١٠٠ - ١٠١.

(٢٢) من لغو الصيف، ص/ ٩٤. من تحليلات هذه الفتنة الممتدة أن طه حسين احتفى احتفاءً شديداً بقصة حديثة لروائي يوناني عنوانها "الكاتبان ميخالي" تحكي قصة سعي اليونان في جزيرة كريت إلى الانفصال عن تركيا، مع أن القصة فيها روح شديدة العداوة للمسلمين، وتقدم لليونانيين صورة جيدة جداً، وللأتراك صورة مشوهة

ومنحرفة جدا: من أدبنا المعاصر، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣، ص/ ٣٧ وما بعدها. مع أنه كان يمكنه أن يفرق بين الاحتفاء بالأداء الفني الجيد – إن وجد – وبين الموضوع الذي وُظِف فيه.

(٢٣) من أدبنا المعاصر، ص/ ٣٠.

(٢٤) من حديث الشعر والنثر، ص/ ١٩.

(٢٥) السابق، ص/ ٢١.

(٢٦) السابق، ص/ ٤٠.

(٢٧) السابق، ص/ ٢١.

(٢٨) السابق، ص/ ٢٩.

(٢٩) السابق، ص/ ٤٠ وما بعدها.

(٣٠) السابق، ص/ ٧٥ وما بعدها.

(٣١) السابق، ص/ ١٣١ وما بعدها.

(٣٢) السابق، ص/ ٨١.

References in Roman Script

1. *Iblīs*, 'Abbās Maḥmūd al-'Aqqād, al-Majmū'ah al-Kāmilah, 2nd ed., Dār al-Kitāb al-Lubnānī, Beirut, 1409 AH / 1989 CE, vol. 12, p. 267. Cf. *Athar al-'Arab fī al-Ḥaḍārāh al-Ūrūbiyyah*, 'Abbās Maḥmūd al-'Aqqād, al-Majmū'ah al-Kāmilah, vol. 10, p. 70.
2. al-Ayyām, *Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation for Education and Culture, Cairo, 2013, vol. 3, p. 247.*
3. Min Ba'īd, *Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation for Education and Culture, Cairo, 2013, pp. 50–51.*
4. *Ibid.* p. 52.
5. Qādat al-Fikr, *Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation for Education and Culture, Cairo, 2013, p. 8.*
6. *Ibid.* p. 20.
7. Min Ba'īd, p. 63. Dr. Ibrāhīm Madkūr noted that Louis Massignon's lectures on Arabic philosophical terminology delivered at the Egyptian University in 1912 were attended by students like Ṭāhā Ḥusayn, Maṣṣūr Fahmī, Aḥmad Ḍayf, and others. See Dr. Madkūr's introduction to: Louis Massignon, *Muḥāḍarāt fī Tārīkh al-Iṣṭilāḥāt al-Falsafiyyah al-'Arabiyyah*, ed. Zaynab al-Khuḍayrī, Institut Français d'Archéologie Orientale, Cairo, 1983, p. K. However, although Ṭāhā Ḥusayn referred to Massignon's view on the pre-Sufi

- origins of mysticism at the aforementioned conference, he did not mention attending any of his lectures on Islamic mystical, logical, physical, or metaphysical terminology, although the context would have justified such a reference.
8. Min Ba'īd, p. 64.
 9. Naqd wa-Isḥāḥ, Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation for Education and Culture, Cairo, 2012, p. 123. Cf. Min Ḥadīth al-Shi'r wa-l-Naṭr, Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation, Cairo, 2013, p. 30.
 10. Qādat al-Fikr, p. 61.
 11. Ibid., p. 62.
 12. See in order: Ṭāhā Ḥusayn, al-Ayyām, vol. 2, pp. 175, 184, 189, 196. Note that in the last reference he wrote Sallam al-'Uyūn instead of Sallam al-'Ulūm, likely a transcriptional error caused by dictation—an example of what hadith scholars call taṣhīf al-samā'.
 13. al-Ayyām, vol. 2, p. 188.
 14. Ibid., vol. 3, p. 218.
 15. Qādat al-Fikr, p. 63. See also: Nizām al-Athīniyyīn, Aristūṭālīs (Aristotle), (Introduction to the translation), trans. Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation, Cairo, 2014, p. 10.
 16. Min Laghw al-Ṣayf, Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation, Cairo, 2013, p. 39.
 17. Ibid., p. 40.
 18. Mustaqḥ al-Thaqāfah fī Miṣr, Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation, Cairo, 2014, p. 18.
 19. Qādat al-Fikr, p. 22.
 20. Min Laghw al-Ṣayf, p. 99. See also his view: "That living literature should not fawn over foreign literatures" in Laḥzāt, Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation, 2013, p. 8.
 21. Min Laghw al-Ṣayf, pp. 99–101. He says: "Science becomes truly Egyptianized (tamaṣṣur) only when we master it, assimilate it, and contribute to it as Europeans do. If we stop at translation, or go slightly beyond that to authorship that is more imitation than innovation, then we are not Egyptianizing science, but merely importing it and hosting it as a guest."
 22. Min Laghw al-Ṣayf, p. 94. One manifestation of this enchantment is that Ṭāhā Ḥusayn strongly praised a recent novel by a Greek writer titled Captain Michalis, which tells the story of Crete's struggle for independence from Turkey. The novel carries a deeply anti-Muslim spirit, portraying Greeks very positively and Turks in an extremely

negative and distorted light: Min Adabinā al-Mu‘āṣir, Ṭāhā Ḥusayn, Hindāwī Foundation, Cairo, 2013, p. 37 ff. Though he could have separated appreciation of artistic quality (if any) from the ideological content.

23. Min Adabinā al-Mu‘āṣir, p. 30.
24. Min Ḥadīth al-Shi‘r wa-l-Naṭr, p. 19.
25. *Ibid.*, p. 21.
26. *Ibid.*, p. 40.
27. *Ibid.*, p. 21.
28. *Ibid.*, p. 29.
29. *Ibid.*, p. 40 ff.
30. *Ibid.*, p. 75 ff.
31. *Ibid.*, p. 131 ff.
32. *Ibid.*, p. 81.